﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ٥٦ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٥٧﴾ [العنكبوت: 56 - 57]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

افتتان الكافرين بأنفسهم وكبرهم وابتلاء المؤمنين بنار المشركين

لمّا ذكر تعالى أحوال المشركين، وأنذرهم بالخسران، وهدّدهم بالعذاب، وبيَّن حال المستعجلينَ العذابَ يوم القيامة، ناسب بعد ذلك ذِكْرُ حال المؤمنين في الدنيا، وأنَّ اللّه سبحانه وتعالى يُرشدهم إلى ترك أرض الشرك والكفر، والبحث عن مكانٍ يعبدون اللّه فيه؛ ويذكِّرهم بأنَّ الموت آتٍ لجميع النّاس مؤمِنِهم وكافِرِهم، وأنَّ العبرة في النَّجاة من سطوة الكفر وأهله، فهو انتقالٌ من بيانِ افتتان الكافرين بما هم عليه من الاستهزاء والتّعجُّل بالعذاب، إلى بيان ابتلاء المؤمنين في الأرض التي يعيشون فيها.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٰسِعَةٞ﴾: (وسع) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى خِلافِ الضّيقِ والْعُسْرِ، يُقالُ: وسُعَ الشَّيْءُ واتَّسَعَ، والوُسْعُ: الْغِنَى، واللّهُ الْواسِعُ أي الغَنيُّ[1]، والسَّعَةُ تقال في الأمكنة، وفي الحال، وفي الفعل كالقدرة والجود ونحو ذلك، ففي المكان نحو قوله: ﴿إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ﴾، وفي الحال قوله تعالى: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ﴾ [الطلاق: 7][2]، والْواسِعُ مِنْ أسماءِ اللّهِ الحُسنى، ومعناه الكثيرُ العطاءِ الَّذي يَسَعُ لِما يُسْأَلُ، والسّعَةُ: نَقيضُ الضّيق، وقَدْ وسِعَه يَسَعُه سَعةً، وإنما ذُكِرَتْ سَعةُ الأرضِ هاهنا لِمَنْ كانَ مَعَ مَنْ يَعْبُدُ الأصنام فأُمِرَ بِالْهِجْرَةِ عَنِ البلَدِ الَّذي يُكره فيهِ عَلَى عِبادَتِها، كقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وسع).
(2) الراغب، المفردات: (وسع).

وَسِعَةَ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَآ﴾ [النساء: 97][1]، فهو أمر لمؤمني مكة؛ قيل لهم: إنّ المدينة واسعة، فلا تجاوروا الظّلمة[2].

2) ﴿نَفْسِ﴾: (نفس) أصلٌ يَدُلُّ على خُروجِ النَّسيمِ مِنْ ريحٍ أوْ غَيْرِها، التَّنَفُّسُ: خُروجُ النَّسيمِ مِنَ الجَوْفِ[3]، والنَّفْسُ في كلام العرب على وجهين: أحدهما قولك: خرَجتْ نفسُ فلانٍ، أي روحه، والثّاني: أن معنى النَّفْسِ حقيقة الشَّيء وجملتُه، يُقالُ: قتَلَ فلانٌ نفسَه[4]، ويُطْلَقُ النَّفْسُ على الدَّمِ؛ لأنَّهُ أساسُ الحَياةِ، أو لأنَّ الرُّوحَ تَخْرُجُ بِخُروجِهِ، يُقالُ: سالَتْ نَفْسُهُ، أيْ: دَمُهُ[5]، والمقصود بالنَّفس في الآية: الفرد والشَّخْصُ.

3) ﴿ذَآئِقَةُ﴾: (ذوق) أصْلٌ يدلّ على اخْتِبارِ الشَّيْءِ مِنْ جِهَةِ تَطَعُّمٍ، ثُمَّ يُشْتَقُّ مِنْهُ مَجازًا فيُقالُ: ذُقْتُ المَأْكولَ أذوقُهُ ذَوْقًا، وذُقْتُ ما عِنْدَ فُلانٍ: اخْتَبَرْتُهُ، وكُلُّ ما نَزَلَ بِإنْسانٍ مِنْ مَكْروهٍ فقَدْ ذاقَهُ[6]، والمَذاق: طَعْمُ الشَّيْءِ، والذَّواقُ: هوَ المأكول والمَشْروبُ[7]، والذّوق: وجود الطعم بالفم، وأصله فيما يقلّ تناوله دون ما يكثر، فإنّ ما يكثر منه يقال له: الأكل[8]، والمقصود أنّه لابدّ من الموت؛ فكلّ أحدٍ ميّت أينما كان[9].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

عند تعذر إقامة الشرع فالهجرة واجبة لحفظ الدين

تُخبر الآية الكريمة عن تحريضِ اللّه تعالى المؤمنين الذين كانوا

(1) ابن منظور، لسان العرب: (وسع).
(2) ابن الجوزي، تذكرة الأريب: ص: 288.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفس).
(4) الراغب، المفردات: (نفس).
(5) ابن منظور، اللسان: (نفس).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذوق).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (ذوق).
(8) الراغب، المفردات: (ذوق).
(9) الواحدي، البسيط: 17/ 548.

بمكّة على الهجرة، بخطابهم: أيّها العباد المؤمنون إنّ أرضي واسعة غير ضيّقة، متاحة لكم أن تقيموا في أيّ مكان منها، فإذا تعذرت عليكم العبادة وإقامة شعائر الدين بمنع الكفار وأذاهم، فهاجروا إلى المكان الذي تتمكنون فيه من إقامة دينكم، ثمّ حقّر أمر الدّنيا ومخاوفها، أي أنتم لا محالة مَيِّتون ومحشورون إلينا، فالبِدارَ إلى طاعة الله ﷻ والهجرة إليه، والخلاصة: أن ما تحذرونه وتكرهونه لا بدَّ من وقوعه، فعلى المؤمنين أن يستسهلوا تَرْكَ الأوطان ومفارقةَ الإخوان في سبيل الدّين[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة فصل الآية عن سابقتها:

قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ مفصولٌ عمّا قبله لأنّه استئنافٌ ابتدائيٌّ، وفيه ترغيبٌ بالهجرة والأمرُ بها.

غرض النّداء بأداة (يا):

نـداء الكريم بالبعيد تشريف وتكريم

عبّر النّظم الكريم بأداة النّداء (يا) التي للبعيد في قوله جلّ شأنه: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ تنبيهًا للعباد على أهميّة مضمون الخطاب، وتهيئةً لأنفسهم لاستقبال الأمر، وتنزيلًا للعبادِ منزلة الشرف والكرامة، لا سيَّما مع إضافتهم إلى ياء المتكلِّم.

نكتةُ إيثار لفظ العباد على لفظِ المؤمنين:

من عَلِمَ وصفَ الله له بالخيرِ لَزِمَه

آثر النّظم الكريم خطاب المؤمنين بلفظ العباد في قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ دون لفظ المؤمنين؛ لتشريفِهم برتبة العبوديّة التي هي أشرف منازل المكلَّفين[2]، وحَضِّهم على أن يكونوا أهلًا لهذا المقام، فإنَّ من عَلِم وصفه لَزِمَه، ففي اختيار هذا اللفظ تحضيضٌ على الهجرة لتحقيق العبوديّة الحقَّة.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 324.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 69.

نكتةُ إيثار صيغة جمع العباد على العبيد:

العباد دخول في الطّاعة اختيارًا، والعبيد طاعة بالقهر

العباد لفظ يشمل الناس كلّهم، بل الأشياء كلّها كذلك، فكلّهم عباد الله، لكن بعضها بالتّسخير وبعضها بالاختيار، وجمع العَبْدِ الذي هو مُسترَقٌّ: عَبيدٌ، وجمع العَبْدِ الذي هو العابِدُ: عِبادٌ، فالعَبيدُ إذا أضيف إلى الله أعمّ من العِبادِ، ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [ق: 29]، فنَبَّه أنه لا يَظْلِمُ من يَختصُّ بِعِبادَتِهِ ومَنِ انتسب إلى غيره[1]، وفي القرآن الكريم دأب على استعمال لفظ العباد للتّكريم ولبيان الصّلة بالله تعالى، فيُضاف إلى الله تعالى، بينما لفظ العبيد فهو يشمل البَرَّ والفاجرَ، ففي لفظ عباد قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: 63]، وعند استخدام لفظ عبيد قال سبحانه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: 46]، فالعباد كلمة تضاف إلى لفظ الجلالة، تشريفًا لهم، أمّا العبيد فهي تطلق على عبيد الناس وعبيد الله معًا، وعادةً تُضاف إلى الناس، وتشمل المحسن منهم، والمسيء. "وعليه، فالمؤمن والكافر سواء في العبودية لله، لكن الفرْق في العبادية حيث جاء المؤمن مختارًا راضيًا بمراد الله، وفَرْق بين عبدٍ يُطيعك وأنت تجرُّه في سلسلة، وعبدٍ يخدِمُك وهو طليقٌ حُرٌّ، وهكذا المؤمن جاء إلى الإيمان بالله مختارًا مع إمكانية أنْ يكفر، وهذه هي العبودية والعبادية معًا"[2].

غرضُ الإضافة:

أضاف النّظم الحكيم لفظ العباد إلى الضّمير العائد على المتكلّم وهو الله ﷻ في قوله جلّ شأنه: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾؛ تشريفًا لهم[3].

(1) الراغب، المفردات: (عبد).
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 18/ 11239.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 465.

نكتةُ الوصف بالاسم الموصول:

الإيـمـانُ أصل الكرامات ومنبع الهدايات

جاء وصْفُ العباد بالاسم الموصول في قوله جلّ شأنه: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وذلك "لما في الموصول من الدلالة على أنهم آمنوا بالله حقًّا، ولكنهم فُتِنوا إلى حَدِّ الإكراه على إظهار الكفر"(1)، كما أنّه يُشير إلى علّة اتّصافهم بكونهم عبادًا، فتشريفُهم بصفة العبوديّة أوْقَعُ لأنّهم تحقّقوا بالإيمان واتّصفوا به.

نكتة فصل الجملة:

نـداء المؤمنين توطئة لما بعده من الأمر المبين

فُصِلت جملة: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ﴾ باعتبارها جوابَ النِّداء، فإنَّ المخاطَب إذا نودي انتظر ما سيُقال له عند النِّداء، فهي تنبيهٌ على ما فيها من خبرٍ قُصد به الأمر، ولو عَطَف لكانت الجملة تابعة لمحذوفٍ، وهي شروعٌ في دعوة المؤمنين إلى الهجرة، أي (إن كنتم في ضيق في مكّة من إظهار الإيمان، وفي مكايدة للكفار؛ فاخرجوا منها لتتيسّر لكم عبادتي وحدي، وتتسهّل عليكم)(2).

فائدة تأكيد جملة جواب النداء:

فـي الأرض سَعَةٌ للحياة وإعلانِ العبادة والعقيدة

أكّد النّظم الجليل الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ﴾ بكونها اسميَّةً، وبالحرف المؤكّد ﴿إِنَّ﴾؛ وذلك لتأكيد أنّ سَعَةَ الأرض تُقَرِّرُ صلاحَ الهجرة وكَوْنَها مُتاحَةً، وفيها تنبيه على "أنّ حالَ من ترك الهجرة حالُ مَنْ يظنّ أنّ الأرض ضيّقة"(3)، فالتوكيد ردٌّ على من يشكُّ في ضيق الدُّنيا النّاشئ عن ضعف الثقة بالله تعالى، وتمسُّكِهِ في الأرض التي يعيش فيها، وحَضٌّ على المسارعة في الهجرة.

نكتة إضافة لفظ الأرض إلى الضمير:

إذا اطْـمَـأنَّـتِ القلوبُ انْقادَتِ الجوارحُ

أضاف النّظم الجليل لفظ الأرض إلى ضمير المتكلّم العائد على الله تعالى في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ﴾؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 22.
(2) القنوجي، فتح البيان: 10/ 210.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 465.

لتوريث الطُّمأنينة في قلوب العباد، فإنَّ الأرض الواسعة هي أرض المتكلِّم سبحانه وتعالى، وهو المُتَصَرِّفُ في شؤونها، وهو الذي يُهيِّئ لعبادِه الخير حيث كان، مع الإيماء إلى أنّ الإله الذي يَكْلؤُكم وأنتم في مكّة سوف يرزقكم في سائر البلاد؛ وذلك لأنّ الأرضَ أرضُه، فأنتم لا تخرجون من دائرة ملكه وسلطانه وحفظه لكم - فإضافة الأرض إلى الله تعالى تحثّ المؤمنين على الهجرة.

نكتة تنكير المُسْنَدِ ﴿وَاسِعَةٌ﴾:

نُكِّر لفظ ﴿وَاسِعَةٌ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ تنبيهًا على عظم سعة الأرض، وإيماءً إلى انتفاء الأعذار عن الامتناع عن الهجرة.

غرضُ الإخبار بسعة الأرض:

الأمر بالمسارعة في الهجرة لحفظ الدين وتمكين المؤمنين

جاء التعبير بالجملة الاسميَّة: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ وهو كلام مستعمل مجازًا مركَّبًا؛ في التذكير بأنَّ في الأرض بلادًا يستطيع المسلم أن يَقْطُنها آمنًا[1]، مع الإيماء إلى سَعَةِ الرّزق فيها، وإمكانِ الهجرة إلى سائر بلادها[2]، بحيث يُعلِنون إيمانهم بلا ضيق عليهم، فليس المقصود بذكر السَّعة مجرَّدَ الإخبار، بل لازمه، وهو المسارعةُ إلى الهجرة، وتَرْكُ التّعذّر بأعذارٍ واهية.

نوع الفاء ودلالتها:

تَحْتَمِل الفاء أن تكون تفريعيَّةً أو فصيحةً

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِيَّايَ﴾: إما أن تكون للتّفريع، فلمّا أخبر عن سعة الأرض فرَّعَ عليه الأمر بالعبادة على وجه التّوحيد، ليخرج مُستَضْعَفو المؤمنين ممّا كانوا يُفتنون عليه بالإكراه على عبادة الأوثان[3]، فبَنَى الأمرَ بالعبادة والهجرة على الإخبار بسعة الأرض،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 21.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 324.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 21.

والفائدةُ بيانُ أن لا عُذْرَ على ترك الهجرة، فالأمر بالهجرة مترتّب على سعة الأرض، وإما أن تكون فصيحة، أي: إن ضاق بكم موضع فإياي فاعبدوا[1].

نكتة تقديم المفعول به على الفعل:

قدّم النّظم الجليل المفعول به على الفعل في قوله جلّ شأنه: ﴿فَإِيَّـٰىَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ فلم يقل: (فاعبدوني)؛ وذلك لتخصيص العبادة به سبحانه وتعالى، أي: اعبدوني وحدي[2].

نوع الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾:

جاء استعمال الفاء الثّانية في قوله جلّ شأنه: ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ للدّلالة على التَّرتيب والتّسبيب تأكيدًا للتّفريع الأوّل، أي: بسبب ما دبّرت لكم من المصالح الكائنة في سعة الأرض، عليكم التّوجُّهُ إليّ بالعبادة خالصة بلا شريك - فتكون الفاء مؤكّدة للتّفريع الأوّل، وفائدة ذلك الدّلالة على تحقيق التّفريع في الفعل وفي معموله، فدلّ ذلك أنّ العلّة بالأمر بالهجرة هي التّمكين من العبادة بعيدًا عن إكراه المشركين[3].

سَبْقُ التّدبير يوجب الهجرة لإعلان التّوحيد

وإما أن تكون الفاء مُؤْذِنَةً بمحذوفٍ هو ناصب ضمير المتكلم تأكيدًا للعبادة، والتقدير: (وإياي اعبدوا فاعبدون)، وهو أنسب بدلالة التقديم على الاختصاص لأنه لما أفاد الأمر بتخصيصه بالعبادة؛ كان ذكر الفاء علامة تقدير على تقدير فعل محذوف قُصِدَ من تقديرِه التأكيدُ[4].

غرضُ الأمر ودلالته:

جاء التعبير بصيغة الأمر في قوله جلّ شأنه: ﴿فَإِيَّـٰىَ فَٱعۡبُدُونِ﴾

إيجاب العبادة تشريفٌ للعبادِ وتطهير للبلاد

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 454.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 45.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 465، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 22.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 22.

لبيانِ وجوب العبادة للّه تعالى على وجه التّوحيد والإخلاص، فهو أمر وجوب، كما أنّ فيه تشريفًا للمأمورين؛ وذلك بدعوتهم إلى أشرف أعمال البشر التي خُلقوا لأجلها، مع ما يُشعر به الأمر في السياق الوارد فيه من وجوب المسارعة إلى العبادةِ.

علّة فصل الآية عن سابقتها:

العاقل المتأمل يُسارع إلى النجاة لأنَّ الموت قريب مباغت

فَصَل النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ لأنّها مستأنَفَةٌ، حيث سيقت للحثّ على الهجرة، فلمّا أورد الأمر بها صَعُب عليهم ترك الأوطان، فبيّن لهم أنّ ما تكرهون لا بدّ من وقوعه؛ فإنّ كلّ نفسٍ ذائقة الموت، والموت مفرّق الأحباب، فكان من الأولى أن يكون الفراق في سبيل اللّه تعالى[1]، وفي الاستئناف معنى التّعليل، أي: سارعوا إلى البحث عن مكان تعبدون فيه اللّه تعالى؛ لأنَّ الموت قريب، وكلُّ نفسٍ ستموت.

غرضُ استعمال لفظ العموم:

التذكير بالموت وعظٌ تحفيزيٌّ للمسارعة إلى الهجرة

افتتح النّظم الجليل الجملة باللّفظ الدّالّ على العموم في قوله جلّ شأنه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ﴾؛ للدّلالة على عموم الحكم الذي جيء به للحثّ على المسارعة بامتثال الأمر بالهجرة، فمضمون الجملة حقيقة لا يمكن إنكارها، والمعنى "لابدّ من الموت، وكلّ أحدٍ ميّت أينما كان، فلا تقيموا بدار الشّرك خوفًا من الموت"[2]، فالحقيقة المعبّر عنها تشمل كلّ نفس شمولًا استغراقيًّا، فجيء بـ﴿كُلُّ﴾ في مُفتَتَح الجملة لتأكيد شمول الحكم الدّالّ على انتفاء مانع الهجرة، وغرض الشمول الاستغراقيِّ وعْظُ النفوس بضرورة المسارعة إلى الهجرة، بحثًا عن تحقيق الحقِّ في أرض الحق.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 70.
(2) الواحدي، البسيط: 17/ 548.

نكتة تنكير النّفس:

نُكِّر لفظ ﴿نَفْسٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ﴾ للدَّلالة على الشمول والعموم، فيَصْدُق بالتنكير صِدْقُ الحكم على كلِّ نفسٍ استقلالًا، كما هو صادق عليها بالجملة.

بلاغة المجاز ودلالته:

الموت يبلغ الإنسان كبلوغ الطّعم للّسان

عبّر النّظم الجليل عن ورود الموت لكلّ نفس بالذّوق في قوله جلّ شأنه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾؛ حيث شبَّه قبض الأرواح عند خروجها من الأبدان بالذَّوق، فهو تشبيهُ أمرٍ حسيّ غيبيّ بالنسبة للأحياء، بأمرٍ حسيٍّ مُشاهَدٍ، على سبيل الاستعارة التصريحية؛ لبيانِ أثره في النفوس كلِّها، فالموت له ذوقٌ خاصٌّ، وطعمٌ فريدٌ لا يعرفه الإنسان إلا عند لحظة مغادرة الروح، وهو تعبيرٌ عن تحقّق الموت كتحقّق الطّعم في اللّسان، أو أن يكون أُطلق الذَّوق وحقيقتُه إدراكُ الطعوم على الإحساس بالعذاب، فهو مجاز مرسل وعلاقته الإطلاق، وقد استُعمل الذَّوق في معنى الإحساس بالخير والشر[1].

دلالة التّعبير باسم الفاعل:

الموتُ حتميٌّ لكلِّ نفسٍ شريفةٍ ودنيّة

آثر النّظم الكريم التّعبير بصيغة اسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾، دون صيغة الفعل المضارع المفيد للاستقبال، فلم يقل: (كل نفس ستذوق الموت)، والموت أمرٌ مستقبَليٌّ لكلِّ حيٍّ، وذلك لبيان أنَّ وقوعه أمرٌ ثابت مستقرٌّ حتميٌّ لا جدال فيه، وأنّ الموت متحقّقٌ لكلِّ نفس؛ فكما أنّ كلّ نفس حيّةٌ، فإنّه محكومٌ عليها بالموت.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلْمَوْتِ﴾:

عَرَّفَ النّظمُ الجليل الموتَ بالألف واللّام في قوله جلّ شأنه:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/ 184.

﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾؛ للدّلالة على الموت المعهود في الأذهان، فهو تعريف بالعهد الذّهني.

فائدة لازم الخبر:

ذكر الموت يقظة النائم وتنبيه الغافل وتحريك الساكن

أخبر النّظم الجليل بقوله جلّ شأنه: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾، والخبر معلومٌ للمخاطَب؛ للتّحذير والتّنبيه والوعيد، وتحقير شأن الدّنيا، وتحقير ما يخافه النّاس فيها، فإنَّ النَّفس مهما تطاولت في الأرض التي ترغب الحياة فيها، وتناءت عن الأرض التي يُعبد الله فيها؛ فإنَّها ذائقةٌ من بعد ذلك الموتَ، والمراد تهوين ما يَلحقُ المهاجرين عاقبة خروجهم من أوطانهم، أي أنّ الموت لا محالة واقع في كلّ حال، فالأولى المبادرة في الطّاعة وإنفاذ الهجرة إلى الله تعالى[1].

نوع حرف التراخي ودلالته:

رتبة الموت توطئة بين يدي الجزاء

آثر النّظم الكريم استعمال حرف التراخي ﴿ثُمَّ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾، والمقصود به الجزاء يوم القيامة، فيَحْتَمِل حرف ﴿ثُمَّ﴾ التراخي الرُّتْبيَّ، والتراخي الزَّماني، والأليق بالمقام أن يكون رتبيًّا، فإنَّ المقصود هو بيان ترتب الجزاء على الموت، وأنَّه حاصلٌ بعده، لمزيد التَّحذير والتنبيه الذي أفادته الجملة الخبريَّة: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾.

نكتة تقديم شبه الجملة:

الهجرة لتحقيق العبوديَّة أصلٌ في القبول عند الرّجوع إليه

قدّم النّظم الجليل شبه الجملة من الجارّ والمجرور على الفعل في قوله جلّ شأنه: ﴿إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾، دون أن يقول: (ثم ترجعون إلينا)؛ وذلك للدّلالة على أنّ الرّجوع بعد الموت كائنٌ إلى الله تعالى لا إلى أحد سواه[2]، فهو رجوع إلى الله تعالى على وجه الخصوص، وهذا باعثٌ على طمأنة المؤمنين لتحقيق الهجرة، فلمّا بيّن أنّ الموت

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 324.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 466.

حقيقةٌ سيذوقها كلُّ أحدٍ من الخلائق، بيّن أنّ بعد الموت سيكون الرّجوع إلى الله العظيم، وهو لن يضيِّعَ أجر المهاجرين يوم القيامة، مع ما فيه من التنبيه والتحذير لمن فرَّط في المسارعة إلى البحث عن أرضٍ يعبد الله تعالى فيها.

دلالة استعمال مفردة الرجوع:

رجوع العباد إلى الله تعالى دليلٌ على أنّهم عادوا إلى المصدر الذي أتوا منه

استعمل النظم الكريم مفردة الرجوع في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ دون لفظ الإتيان أو المجيء أو القدوم، والرجوع إنَّما يكون عودة للمكان الذي جيء منه، فدَلَّ على أنَّ العباد إنَّما أتَوا من عند الله تعالى، وسيرجعون إليه، وهذا على الاعتبار الحقيقيِّ، أو على اعتبار أنَّ قدوم المخلوق على خالقه هو رجوعٌ إليه باعتبار المصدر، ولهذا قال الراغب في بيان معنى الرُّجوع: "هو العَوْدُ إلى ما كان منه البدء، أو تقدير البدء مكانًا كان أو فعلًا، أو قولًا، وبذاته كان رجوعه، أو بجزء من أجزائه، أو بفعل من أفعاله، فالرُّجوعُ: العَوْدُ"[1].

نكتةُ التّعبير بصيغة المضارع:

تصوير المشهد الغيبيّ تقريبٌ للأذهان وتنبيهٌ للإنسان

عبّر النّظم الجليل بصيغة المضارع للفظ الرّجوع في قوله جلّ شأنه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ للدّلالة على العودة إلى الحياة والبعث بعد الموت، والجزاء على الأعمال، فالرّجوع إلى الله تعالى إخبار للحثّ على طاعة الأمر بالهجرة[2]، وجاء التعبير بصيغة الفعل المضارع للدّلالة على وقوعه مستقبلًا، ولاستحضار الصّورة واستجلاب المشهد.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الرجوع والأوب:

الأوْبُ: ضرب من الرجوع، وذلك أنّ الأوب لا يقال إلا في الحيوان

(1) الراغب، المفردات: (رجع).
(2) الواحدي، البسيط: 17/ 549.

الإيـاب أخـصّ مـن الـرّجـوع، فـهـو رجـوع إلـى النّـهـاية، والرّجوع العود مطلقًا

الذي له إرادة، والرجوع يقال فيه وفي غيره، يقال: آب أَوْبًا وإيابًا ومَآبًا[1]، فالإياب مختصّ بالرُّجوع إلَى مُنْتَهى المَقْصد، وأمّا الرُّجوع فهو أعمُّ، فيكون لذَلِك ولغيره؛ فيقال: رَجَعَ إلَى بعض الطَّريق، ولا يصحّ أن يقال: آب إلَى بعض الطَّريق، ولِهَذا قالَ تَعالَى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ [الغاشية: 25] كَأنّ الْقيامَة مُنْتَهى قصدهم؛ لأنّهم لا منزلَة بعْدها[2]، وفي قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٦﴾﴾ [الرعد: 36]؛ يدلّ على أنّ كون النّهاية إليه ﷻ، أمّا الرُّجوعُ: فهو العَوْدُ إلى ما كان منه البَدْءُ، أو تقدير البدء مكانًا كان أو فعلًا، أو قولًا، وبذاته كان رجوعه، أو بجزء من أجزائه، أو بفعل من أفعاله، فالرُّجوعُ: العَوْدُ[3]، فعبّر بالرّجوع لأنّه أراد معنى مطلق العودة إليه ﷻ.

(1) الراغب، المفردات: (أوب).
(2) العسكري، الفروق: ص: 303.
(3) الراغب، المفردات: (رجع).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والأربعون،
سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 42 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-93-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 42 : المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-93-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2154237 بتاريخ 2024/12/25م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»